الفصل الثالث

الغيـــب بين الوحـــي والعقـــل

مصادر المعرفة

المعرفة في القرآن ممكنة، وليست أملاً مستحيلاً. ولذلك أثبت متكلمو الإسلام إمكان معرفة بعض الحقائق، ورفضوا قول من قال إنه لا سبيل مطلقاً إلى إدراك الحقيقة[1]. لكنهم بالمقابل لاحظوا قصور الإدراك الإنساني ونسبيته. ولذلك كان هذا الموقف ـ من هذه الحيثية ـ وسطاً بين الارتيابية من جهة، والعقلانية الكلاسيكية من جهة أخرى.

والقرآن الكريم يجعل للمعرفة مصادر متنوعة ومختلفة، ولكنها متكاملة. فمنها الحواس: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [السجدة: 9] ومنها العقل، ويعجبني ـ في هذا المقام ـ الحساب القرآني، والذي يمكن الاحتجاج به على بعض الآراء الفلسفية التي تشك في أسس الرياضيات والحساب، وتعتبر مثلاً أنه يمكن أن يوجد عالم تكون فيه 2+2=5[2]. قال تعالى ـ في بعض أحكام الحج ـ: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ [البقرة: 195].

ومن المصادر أيضاً: الخبر الصادق، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن

---

(1) انظر: البغدادي. **الفرق بين الفرق**، ص 249، بيروت: دار الكتب العلمية، 1982.

(2) Histoire de la Philosophie,7/15.
ويظهر لي أنه ليس لهذا الشك موضع في عالمنا هذا. لكن هل يلزم أن تكون أسس الرياضيات ثابتة لا تتغير حتى في عالم آخر ووجود مخالف لما نعرف...؟

جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: 6]. ولكل واحد من هذه المصادر خصائصه وشروطه.. وحدوده أيضاً. ولهذا فهي جميعاً ضرورية، تتكامل وتتعاون. وقد نبه العلماء على طبيعة كل مصدر معرفي وآفاته[1]. ويوجد في الفلسفة والفكر الإنسانيين كلام وبحث في بعض هذه المصادر، ولكن الذي يميز الدين ـ في هذا الموضوع ـ هو ترتيبه الخاص لهذه المصادر وإعطاء كل واحد منها مجالاً معيناً. فالدين مصدر للمعرفة، لكنه أوّلي وحاسم حين يتعلق الأمر بالغيب وشؤونه.

الدين مصدر المعرفة الغيبية

إن الأصل في شؤون الغيب هو أن تؤخذ من الوحي والدين، لا بمجرد مقتضيات العقل. ولذلك عرَّف بعض العلماء الغيب بأنه: كل ما أخبر به الرسول مما لا تهتدي إليه العقول[2]. وقال الإيجي: «جميع ما جاء به الشرع من الصراط والميزان والحساب وقراءة الكتب والحوض المورود وشهادة الأعضاء... حق. والعمدة في إثباتها: إمكانها في نفسها، إذ لايلزم من فرض وقوعها محال لذاته، مع إخبار الصادق عنها»[3] فهذه قاعدة أهل السنة: الاحتكام في أمور الغيب إلى النصوص الشرعية، فمتى صحت وقبلها المسلمون ـ خاصة السلف منهم ـ وجب المصير إليها. ولذلك هم لا يستعملون العقل ـ في هذا الباب ـ إلا في أضيق الحدود. والمعتزلة ـ على خلاف ذلك ـ يتوسعون في تحكيم عقولهم في هذه الغيبيات، خاصة الجزئية منها، إذ لا خلاف بين المسلمين في أمهات العقائد. لكنهم ـ أي المعتزلة ـ يختلفون فيما بينهم ولا يكادون يتفقون على شيء من تفاصيل الغيب، كالصراط مثلاً[4]، فبعضهم يقول هو مستحيل عقلاً، وبعضهم يقول بل هو ممكن عقلاً، غير أنني أرد النصوص

(1) راجع مثلاً نقد الجصاص للمعرفة الحسية في: **أحكام القرآن**، 1/ 45، البقرة 101.

(2) القرطبي. **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، 1/ 115، البقرة 2.

(3) المواقف وشرحها، 3/ 522-523.

(4) راجع في هذه الغيبيات، والتي تسمى أيضاً بالسمعيات: **فتاوى ابن تيمية**، 4/ 216 إلى 392.

الواردة فيه. وآخرون يقولون: بل نؤمن بهذه النصوص، ولا وجه للاعتراض عليها. والحقيقة أنه لا معنى للإيمان ببعض الغيب دون بعض. فكيف يُنكِر عذاب القبر ونعيمه... من يؤمن بالحشر والبعث والسؤال؟ فهما باب واحد، والمرء إذا آمن بالوحي والغيب، كفاه قيام الدليل بنصوص ثابتة صحيحة. فأهل السنة متفقون على القاعدة السابقة وملتزمون بها. وإنما وقع التردد في العقائد التي ثبتت بأخبار آحاد لم تصل حد التواتر ولا حتى درجة الشهرة، فقالوا لايلزم الإيمان بها، على معنى أنها ليست من أصول الغيب والإيمان الكبرى، لكنهم ما جوَّزوا تكذيبها وردّها. فهذا الرأي أشبه بالتوقف. في حين قال آخرون: إن الأخبار متى صحّت ـ على منهاج علم الحديث ـ أخذنا بها، لا فرق في ذلك بين العقائديات والفقهيات.

وأكثر الغيبيات الكبيرة ثابتة بطريقين: الأول نص القرآن أو ظاهره؛ والثاني الأحاديث الصحيحة، وهي كثيرة تبلغ أحياناً درجة الاستفاضة والشهرة، وأحياناً أخرى رتبة التواتر، وقد تكون أخبار آحاد، لكنها صحيحة. مثال ذلك: الميزان. قال الله جل جلاله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 7 ـ 8]. فقد أنكر أكثر المعتزلة أن يكون في الآخرة ميزان حقيقي توزن به أعمال العباد، وقالوا المقصود به في الآية هو العدل، لأن الأعمال أعراض ـ لاجواهر ـ فيستحيل وزنها، لأنها لا تستقل بالوجود. أما أهل السنة فقالوا: لايستحيل وزن الأعمال، وإن كانت أعراضاً، ولعلها تُجسد أو تجعل في أجسام، ثم توزن[1]. خصوصاً أن الأحاديث ناطقة بوجود هذا الميزان يوم الحساب، كما قال النبي ﷺ: ما يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من خلق حسن[2]. قال الشيخ رشيد رضا في هذا المقام: «الأصل الذي عليه سلف الأمة في الإيمان بعالم الغيب: أن كل ما ثبت من أخباره في الكتاب والسنة فهو حق لا ريب فيه، نؤمن به ولا نُحكم رأينا في صفته وكيفيته. فنؤمن إذا بأن في الآخرة وزناً للأعمال قطعاً، ونرجح أنه ميزان يليق بذلك العالم يوزن به

(1) راجع كتب العقائد، مثل: الغزالي. **الاقتصاد في الاعتقاد**، مرجع سابق، ص 137. الطحاوي. **شرح العقيدة الطحاوية**، 2/ 608، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1987.

(2) رواه أبو داود، والترمذي وصححه، وابن حبان، عن أبي الدرداء.

الإيمان والأخلاق والأعمال، لا نبحث عن صورته وكيفيته... وإذا كان البشر قد اخترعوا موازين للأعراض، كالحر والبرد، أفيعجز الخالق الباري القادر على كل شيء عن وضع ميزان للأعمال النفسية والبدنية المعبر عنها بالحسنات والسيئات؟... (و) حكمة وزن الأعمال بعد الحساب أنه يكون أعظم مظهر لعدل الرب تبارك وتعالى، أي ولعلمه وحكمته وعظمته في ذلك اليوم العظيم، إذ يرى فيه عباده ـ أفراداً وشعوباً وأمماً ـ ذلك بأعينهم...»[1].

ومما يؤكد بقاء الدين مصدراً أولاً لمعرفة الغيب أن أقرب مجالات البحث الإنساني إلى هذا الموضوع ـ وهو الباراسيكولوجيا المعاصرة ـ لم يتقدم كثيراً، ولم يزد على إثباته لوجود ظواهر غير طبيعية في الوجود، دون أن يفسرها مثلاً. فمن الواضح هنا أنه من الصعوبة ـ أو الاستحالة ـ بمكان أن نصل بإمكانياتنا العقلية والنفسية إلى معرفة متكاملة عن عالم الغيب الأخروي. توجد أفكار ومحاولات، بعضها مهمّ كأفكار كارينكتون، ولكنها لا تستطيع أن تقدم لنا علماً كافياً بعالم ما بعد الموت مثلاً[2]. ولا بأس ـ في نظري ـ من الاستمرار في هذه الجهود ـ التي تحتضنها اليوم الباراسيكولوجيا ـ، لكن سيظل الدين هو المرجع الأول والأخير لكل عقيدة تتعلق بعوالم الغيب، عقيدة تريح الإنسان الذي يسأل بلهفة عن أسرار وجوده، والذي لا يتسع عمره القصير لانتظار ما سيسفر عنه العلم بصددها، ربما بعد مئات السنين أو آلافها... هذا إن أسفر عن شيء[3]. إذن فقضايا الغيب تؤخذ عن الشارع، وفي حدود ما ثبت عنه، فهي لذلك توقيفية لا توفيقية، فلا يزاد فيها ولاينقص، كما لا يُتعرض لها بالعقل المحض.

العقل لايغني عن الرسالة

ونظراً لقصور العقل عن بلوغ كثير من الحقائق، فإنه يعجز لوحده عن

---

(1) رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، مرجع سابق، 8/ 323-324

(2) راجع فصل «الأبحاث العلمية المعاصرة» في: L'Au-Delà, p 96 à 109.

(3) وهذا في أحسن أحوال الثقة بالعقل. والراجح-دينيا وفلسفيا- أن طبيعة العقل نفسه تمنعه من اختراق الغيب، مهما كانت درجة التقدم العلمي للإنسان.

التمييز بين الخير والشر، أو بين الحق والباطل. كما يعجز عن معرفة عالم الغيب وسر وجود الإنسان في الأرض ومصيره بعد الموت... ونحو ذلك مما نرجع فيه إلى الأنبياء. ولذلك فإن معنى النبوة ـ أو الرسالة ـ «هو أنها هداية عليا للبشر لا تغنيهم عنها هدايات الحواس الظاهرة والباطنة، ولا هداية العقل، فإن هذه هدايات شخصية فردية، وتلك هداية لنوع الإنسان في جملته»[1] وقد يُعترض على هذا بأنه إذا كان ما يجيء به الرسل موافقاً للعقل، ففيه غناء عن إرسالهم. وإن جاءوا بما يخالفه فهو من التكليف بما لا يطاق. والجواب من وجوه كثيرة، منها أن فيما تأتي به الرسل أمور أخرى لا تتعارض مع العقل، ولكنه لوحده لا يستطيع أن يصل إليها، مع إمكانها في نفسها. ثم ما المانع أن يكون للإنسان مصدران يوجهانه: الدين والعقل. وإذا أمكن للبشر أن يستغنوا بعقولهم عن النبوات، فأين كانت هذه العقول حين عبدت البشرية الأصنام، واعتنقت الأساطير والخرافات ردها طويلاً من الزمان... بل لا يزال قسم منها ـ بآسيا وإفريقيا ـ على ذلك أو بعضه.

وقد فصّل الشيخ محمد عبده بعض هذه القضايا تفصيلاً حسنا، فقال: إن العلوم والمعارف التي نحتاج إليها في حياتنا أقسام متعددة. منها ما لا نحتاج فيه إلى معلم كالمحسوسات والوجدانات. ومنها ما لا مطمع لأحد في الوصول إليه، كاكتناه ذات الله تعالى وصفاته، وككيفية التكوين والإيجاد الأول، المعبر عنه بسر القدر. ومنها ما يتيسر للناس أن يعرفوه بالاستدلال والتجربة كالعلوم الرياضية والتجريبية... ومنها ما يجب علينا تجاه الخالق العظيم، في حكمة خلقنا ومراده منا وما يتبع ذلك من أمر مصيرنا، وما يجب علينا له من الشكر والعبادة. فلنا على هذا شعور مجمل وعام، هو المعبر عنه بالفطرة. لكنه مبهم غير كاف. ولهذا وقعت الأمم في الحيرة والخطأ لجهلها بالصلة الصحيحة بين الخالق والمخلوق، فكثرت الاعتقادات الفاسدة. والحواس والعقل لا يدركان الصواب في هذه القضايا، فلا شك احتاج الإنسان إلى عقل آخر يدرك به ما يعوزه منها. وهذا العقل هو النبي المرسل. والقسم الخامس من المعارف هو ما

(1) رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، مرجع سابق، 1/ 220. البقرة 23-24.

يستطيع العقل البشري إدراك الفائدة منه، ولكنه عرضة للخطأ فيه دائماً لما يعرض له من الأهواء والشهوات التي تغشي بصره، فتحول دون وصوله إلى الحقيقة. ومن ذلك كثير من شؤونه الاجتماعية والمالية والقانونية... خاصة الأمهات منها[1]. قال الشيخ: «فما يمكن للإنسان أن يصل إليه بنفسه لا يطالَب الأنبياء ببيانه، ومطالبتهم به جهل بوظيفتهم وإهمال للمواهب والقوى التي وهبه الله إياها، ليصل بها إلى ذلك. وكذلك لا يطالبون بما يستحيل على البشر الوصول إليه، كقول بعض بني إسرائيل لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: 55]. وأما ما كان إدراكه ممكناً وكسبه بالحس والعقل متعذراً أو تحديده متعسراً، فهو الذي نحتاج فيه إلى هاد مخبر عن الله تعالى لنأخذه عنه بالإيمان والتسليم. ولذلك قلنا إن الرسول عقل للأمة وهداية، وراء هداية الحواس والوجدان والعقل»[2].

إن الإسلام حين يقرر أن العقل وحده لا يكفي في حياة الإنسان... خصوصاً في أمور الاعتقاد... فليس لأنه يلغي العقل، بل لأنه يوجهه لما يصلح له.

الإيمان بالغيب توجيه لطاقة العقل

إذ لاشك أن الإسلام احترم العقل وأقرّ بفضله، والنصوص كثيرة في التنويه بأهل الفكر والنظر والاعتبار... لا يحتاج معها إلى الأحاديث «الموضوعة»[3].

---

(1) رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، مرجع سابق، 2/ 198-199. البقرة 188.

(2) المرجع السابق، 2/ 200.

(3) قال ابن القيم: أحاديث العقل كلها كذب، كقوله: لما خلق الله العقل، قال له أقبل... فقال: ما خلقتُ خلقا أكرم عليَّ منك. وقد اشتهرت هذه الأحاديث بكتاب العقل، قال الدارقطني: كتاب العقل وضعه أربعة. وكذلك نقل ابن القيم عن أبي الفتح الأزدي أنه قال: لايصح في العقل حديث. ومنها: إن الرجل ليكون من أهل الصلاة والجهاد، وما يجزى إلا على قدر عقله. راجع: المنار المنيف، ص 65. لكن يبدو أن في هذه الأحكام شدة، وأن بعض أحاديث العقل ليست موضوعة بل ضعيفة، ومن ذلك ما أورده ابن أبي الدنيا في كتابه: **العقل وفضله**، ضمن موسوعة رسائله، الرسالة الخامسة.

وقد أمر الله تعالى الإنسان باستعمار الأرض، وزوده لأجل ذلك بهذه الآلة الفذة التي هي العقل. فالكون مسرح لمعرفة الإنسان، وهو مخلوق له، ممهد له، ميسر له اكتشافه... لأن الإنسان هو المقصود من العالم، وما عداه من الموجودات كان لأجله. ومن هذا المعنى استخرج ابن رشد «دليل العناية» واستعمله في إثبات وجود الباري[1].

ولكن هذا الإنسان ـ القادر على فهم الكون من حوله ـ يعجز عن اختراق عالم الغيب. وتلك إحدى مفارقات العقل البشري، فهو يبدع في عالم المادة ويحقق فيه إنجازات كبيرة... لكنه يفشل في إدراك عالم المعاني، ومنه عالم الإنسان. فالأول مجاله الحقيقي، بخلاف الثاني. لهذا يقول ألكسيس كاريل ـ صاحب جائزة نوبل في البيولوجيا ـ: إن الإنسان المعاصر الذي ذهب بعيداً في العلوم التجريبية لم يفعل شيئا لفهم نفسه، فبقي «الإنسان ذلك المجهول»[2]. ولذلك كان الإيمان بالغيب ـ في حدوده الشرعية ـ حفظاً لطاقة العقل وتوجيهاً لها، لا حجراً عليه أو تضييقاً لحريته. فدور هذا الإيمان ـ كما يقول سيد قطب ـ هو أن «تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والتمزق والانشغال بما لم تخلق له، وما لم توهب القدرة للإحاطة به، وما لايجدي شيئا أن تنفق فيه. إن الطاقة الفكرية التي وهبها الإنسان، وهبها ليقوم بالخلافة في هذه الأرض، فهي موكلة بهذه الحياة الواقعة القريبة، تنظر فيها، وتتعمقها وتتقصاها، وتعمل وتنتج، وتنمي هذه الحياة وتجملها، على أن يكون لها سند من تلك الطاقة الروحية التي تتصل مباشرة بالوجود كله وخالق الوجود، وعلى أن تدع للمجهول حصته في الغيب الذي لا تحيط به العقول. فأما محاولة إدراك ما وراء الواقع بالعقل المحدود الطاقة... فهي محاولة فاشلة أولاً، ومحاولة عابثة أخيراً. فاشلة لأنها تستخدم أداة لم تخلق لرصد هذا المجال. وعابثة لأنها تبدد طاقة العقل التي لم تخلق لمثل هذا المجال. ومتى سلم العقل البشري بالبديهة العقلية الأولى، وهي أن المحدود لا يدرك المطلق، لزمه ـ احتراماً لمنطقه ذاته ـ أن يسلم بأن إدراكه للمطلق مستحيل؛ وأن عدم إدراكه للمجهول

---

(1) راجعه في كتب ابن رشد الحفيد، خاصة: **مناهج الأدلة**.

(2) هذا عنوان كتابه الذي فصّل فيه هذه القضية: L'Homme, cet inconnu

لا ينفي وجوده في ضمير الغيب المكنون؛ وأن عليه أن يكل الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل؛ وأن يتلقى العلم في شأنه من العليم الخبير الذي يحيط بالظاهر والباطن، والغيب والشهادة. وهذا الاحترام لمنطق العقل في هذا الشأن هو الذي يتحلى به المؤمنون، وهو الصفة الأولى من صفات المتقين»[1].

وقد كان للعلماء ـ عبر تاريخ الإسلام ـ موقف ثابت وعميق الدلالة في موضوع علاقة العقل بما وراء الطبيعة، لخصه خواجه زاده بقوله: «..إذ الأمور الإلهية عويصات تتأبى أن تستقل بإدراكها عقول البشر، ومعضلات لا يتأتى أن يتوصل إليها بمجرد الفكر والنظر... [و] الفلاسفة قد تعمقوا في النظر والاستدلال، وجعلوا العقل في حقائق الأمور ـ وإن كانت من الإلهيات ـ حاكماً على الإطلاق، مدركاً بالاستقلال. ولم يلتفتوا إلى ما نطق به الوحي الصريح، مع أن ما يخالفه ليس مقتضى النظر الصحيح»[2].

إن هذه الجماعة من المتفلسفة «ظلت تجاهد بعقولها المحدودة لإدراك غير المحدود من ذاته تعالى، والمعرفة الحقيقية المغيبة، عن غير طريق الكتب المنزلة. وكان منهم فلاسفة حاولوا تفسير هذا الوجود وارتباطاته، فظلوا يتعثرون كالأطفال الذين يصعدون جبلاً شاهقاً لا غاية لقمته، أو يحاولون حل لغز الوجود وهم لم يتقنوا بعد أبجدية الهجاء! وكانت لهم تصورات مضحكة ـ وهم كبار فلاسفة ـ، مضحكة حقاً حين يقرنها الإنسان إلى التصور الواضح المستقيم الجميل الذي ينشئه القرآن، مضحكة بعثراتها، ومضحكة بمفارقاتها، ومضحكة بتخلخلها، ومضحكة بقزامتها بالقياس إلى عظمة الوجود الذي يفسرونه بها...»[3].

وأحد العناصر الأساسية لهذا الموقف «العقلاني» العظيم من العقل وطبيعته وحدوده، هو التمييز في علوم الفلاسفة الأقدمين بين الإلهيات وغيرها، من الطبيعيات والرياضيات. يقول ابن الجوزي: «إنما تمكن إبليس من التلبيس على الفلاسفة، من جهة أنهم انفردوا بآرائهم وعقولهم، وتكلموا بمقتضى ظنونهم

(1) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، 1/ 40-41، البقرة 2.
(2) خواجه زاده. **تهافت الفلاسفة**، ص 59، بيروت: الدار العالمية، 1983.
(3) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، 8/ 327، سورة الجن.

من غير التفات إلى الأنبياء... وهؤلاء [أي قدماء الفلاسفة] كانت لهم علوم هندسية ومنطقية وطبيعية واستخرجوا بفطنهم أموراً خفية، إلا أنهم لما تكلموا في الإلهيات خلطوا، ولذلك اختلفوا فيها، ولم يختلفوا في الحسِّيات والهندسيات... وسبب تخليطهم أن قوى البشر لا تدرك العلوم إلا جملة، والرجوع فيها إلى الشرائع»[1].

إن توجيه العقل ـ بإبعاده عن الغيب ـ ليس حجراً عليه، بل هو تحرير له. ولذلك كان خضوع العقل للوحي ـ المصدر الحقيقي لمعارفنا عن عوالم الغيب ـ تحريراً له وتكريماً، لأنه إن لم يخضع للوحي خضع لغيره من العقول البشرية. وبعض الفلاسفة أو المفكرين حين يقصي الوحي من حياتنا، فلأنه يقترح علينا أن نحتكم إلى عقله هو الذي يصبح ـ هو الآخر ـ نوعاً من الوحي، والفرق أن الوحي الأول إلهي، والثاني بشري. إن منصة التحكيم لا تحتمل الفراغ، ولا بد أن يكون على رأسها أحد: إما الوحي، وإما بعض العقول البشرية التي تفرض رؤاها على غيرها.

أما الفلاسفة الإسلاميّون الذين خاضوا في الإلهيات والغيبيات ـ خلافاً للتوجيهات القرآنية الواضحة في الموضوع ـ، فإن التاريخ يشهد على أن عملهم هذا لم يسهم في تقدم العلوم والمعارف في الحضارة الإسلامية. ولو أنهم وجَّهوا جهودهم العقلية الكبيرة إلى علوم الرياضيات والفيزياء والطبيعيات... ربما حققت الحضارة العربية ـ الإسلامية هذه الثورة العلمية التي وصلت إليها أوروبا، لا بتأملات أفلاطون وأرسطو... بل بعلوم غاليلي ونيوتن...

قاعدة في أن الغيب ليس محالا عقلا

وإذا كان من الخطأ تعريف الغيب بأنه ما يقابل الواقع، لأن الغيب واقع، فكذلك لا تصح مطابقة الغيب بـ«اللاعقلاني»، لسبب بسيط هو أنه لا يوجد في أحكام العقل ما يضاد وجود الغيب. يقول رشيد رضا ـ في تلخيص هذه القاعدة

(1) مختصراً من: **تلبيس إبليس**، ص 58، 61، 62. ولعل القارئ يلاحظ الشبه الكبير بين هذا الموقف الإبستمي الإسلامي القديم وبين المنطلق النقدي لفلسفة كانط.

الكبيرة ـ: «ليس في الإسلام شيء يحكم العقل باستحالته، وإنما فيه أخبار عن عالم الغيب لا يستقل العقل بمعرفتها، لعدم الاطلاع على ذلك العالم، ولكنها كلها من الممكنات التي أخبر بها الوحي فصدقناه. فالإسلام لا يكلف أحداً أن يأخذ بالمحال»[1]. ولذلك يخبر القرآن عن المشركين أنهم وإن كذبوا بالآخرة، إلا أنهم ليسوا على يقين من صحة موقفهم هذا: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ [النمل: 66][2] لأن الآخرة ليست مستحيلة عقلاً.

فالوحي الصحيح لا يتناقض أبداً مع العقل الصريح، بل هما متوافقان، لأن كليهما من الله تعالى، ومن آثاره في الوجود، فهو الخالق لكل شيء، وهو القائل: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: 81]. يقول محمد البهي: «وأمران شأنهما هذا الشأن لابد أن يتفقا في التحديد الإجمالي ـ على الأقل ـ لطريق الإنسان في حياته وغايته في وجوده. فإن بدا أن هناك اختلافاً بين تطبيق رسالة الوحي واستخدام العقل، كان منشأ هذا الاختلاف: إما تحريف رسالة الوحي، أو سوء استخدام العقل. والمحرِّف... هو الإنسان، هنا وهناك»[3]. ولذلك ألف ابن رشد: «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال». وبعده ألف ابن تيمية: «موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول»، أو«درء تعارض النقل والعقل».

والذي يَتصور وقوع تعارض بين الوحي والعقل في قضية محددة يخطئ، لأنه أسقط من حسابه عامل تعدد العقلانيات واختلافها، فهو يظن أن العقلانية خط سكوني واحد لا يتغير. ثُم هو يفترض أن الحدود بين ما هو عقلاني وغير عقلاني حدود ثابتة ونهائية، وهذا أمر ـ كما يقول طه عبد الرحمن ـ «ينقضه واقع تطور المعارف الإنسانية، بحيث لا نجانب الصواب إن قلنا بأن «العقلانية»

---

(1) رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، مرجع سابق، 6/ 31-32.

(2) المعنى: بل اجتمع علمهم على أن الآخرة لا تكون، أي فلم يعتقدوها، لكنهم ـ في الواقع ـ في حيرة لأنه لا دليل لهم. عن: مراح لبيد، 2/ 132، النمل 68.

(3) البهي، محمد. **الفكر الإسلامي الحديث، وصلته بالاستعمار الغربي**، مرجع سابق، ص 158، 159.

و«اللاعقلانية» إن هما إلا طرفان متقابلان لسلم واحد، بينهما مراتب لا حصر لها، تتزايد أو تتناقص فيها درجة العقلانية أو اللاعقلانية»[1]. ولذلك لاتوجد حدود فاصلة بين النظر العقلي والدين، و«تدخل القيم الدينية في تكوين النظر العقلي أمر لايمكن إنكاره ولاضبطه»، وما المفهوم الفلسفي للظاهرة ـ مثلاً ـ ببعيد عن معنى «التجلي» الديني[2].

لهذا كانت العقلية الإسلامية عقلية «غيبية علمية»، تجمع بين الإيمان بالغيب، والتشبع بروح العلم ومناهجه. يقول سيد قطب في تفسير ذلك: «إن العقلية الإسلامية لتجمع بين الاعتقاد بالغيب المكنون الذي لا يعلم مفاتحه إلا الله، وبين الاعتقاد بالسنن التي لا تتبدل، والتي تُمْكِن معرفة الجوانب اللازمة منها لحياة الإنسان في الأرض، والتعامل معها على قواعد ثابتة. فلا يفوت المسلم العلم البشري في مجاله، ولا يفوته كذلك إدراك الحقيقة الواقعة؛ وهي أن هنالك غيباً لا يُطلع الله عليه أحداً، إلا من شاء، بالقدر الذي يشاء»[3].

والقرآن الكريم لاينفي العلوم الظاهرة التي يصل إليها الإنسان بعقله وبحثه وتجربته، وإنما ينكر عليه اكتفاءه بها وإلغاءه لغيرها من المعارف، وعلى رأسها ما يتعلق بالغيب: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: 6 ـ 7] يقول ابن عاشور مفسراً: «وصف حالة علمهم كلَّها بأن قصارى تفكيرهم منحصر في ظواهر الحياة الدنيا غير المحتاجة إلى النظر العقلي، وهي المحسوسات والمجربات والأمارات، ولا يعلمون بواطن الدلالات المحتاجة إلى إعمال الفكر والنظر... والكلام يشعر بذم حالهم، ومحط الذم هو جملة: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾. فأما معرفة الحياة الدنيا فليست بمذمة، لأن المؤمنين كانوا أيضاً يعلمون ظاهر الحياة الدنيا، وإنما المذموم أن المشركين يعلمون ما هو ظاهر من أمور الدنيا، ولا يعلمون أن وراء عالم المادة عالماً آخر هو عالم

(1) عبد الرحمن، طه. **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام**، ص 161-162.
(2) المرجع السابق، ص 163.
(3) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، 3/ 263، الأنعام 60.

الغيب»[1]. ويقول سيد قطب ـ في السياق نفسه ـ: «ظاهر الحياة الدنيا محدود صغير، مهما بدا للناس واسعاً وشاملاً، يستغرق جهودَهم بعضُه، ولا يستقصونه في حياتهم المحدودة. والحياة كلها طرف صغير من هذا الوجود الهائل... والذي لا يتصل قلبه بضمير ذلك الوجود، ولا يتصل حسه بالنواميس والسنن التي تصرفه، يظل ينظر وكأنه لا يرى، ويبصر الشكل الظاهر والحركة الدائرة، ولكنه لا يدرك حكمته، ولا يعيش بها ومعها. وأكثر الناس كذلك، لأن الإيمان الحق هو وحده الذي يصل ظاهر الحياة بأسرار الوجود...»[2].

دور العلم الحديث في تقريب بعض مفاهيم الغيب إلى العقل

إن منجزات العلم الحديث واكتشافاته تساعد في تقريب بعض شؤون الغيب إلى الذهن الإنساني. فعلم الفلك ـ مثلاً ـ بحديثه عن الكواكب والشموس والأجرام والثقوب السوداء ـ أو مقابر النجوم ـ... يعطينا فكرة عن سعة عالم الآخرة... وهي سعة هائلة تَذكرها النصوص... ولذلك قال رشيد رضا: «لايوجد علم أدل على عظمة الخالق وقدرته وسعة علمه ودقة حكمته من علم الفلك»[3]. واكتشاف البيولوجيا لأنواع من الكائنات الدقيقة التي لا تُرى بالعين المجردة كالميكروبات... يدل على إمكان وجود كائنات أخرى لا نستطيع إبصارها حتى بالمجهر، كالجن الذين يقول فيهم الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: 26][4] ولو أن أحداً حدث الناس عن الفيروسات ـ منذ بضعة قرون ـ لعدوه مجنوناً، وقالوا كيف توجد آلاف من الأحياء ـ لا نراها ـ في نقطة ماء؟ وكذلك الكهرباء وقوتها وسرعتها وسريانها في الأشياء... والجاذبية وتأثيرها عن بعد... والمغناطيس وحقله... كل ذلك يمكن أن يقرب لأذهاننا أشياء من الغيب... رغم أنه ليس بين عالمي الشهادة والغيب إلا الشبه السطحي في بعض الأمور.

---

(1) ابن عاشور، محمد. **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، 21/ 49-50.

(2) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، 6/ 440.

(3) رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، مرجع سابق، 9/ 573، خلاصة سورة الأعراف.

(4) هذا مجرد مثال لإمكان وجود خلق لا نراه، وليس الجن هو الميكروب بحال.

والمقصود ـ كما قال صاحب المنار ـ أننا «نقول اليوم: إن العلوم الكونية لم تُبق شيئاً من أخبار عالم الغيب غريباً إلا وقربته إلى العقل، بل إلى الحس تقريباً؛ بل ظهر من الاختراعات المادية المشاهدة في هذا العصر ما كان يعد عند الجماهير محالاً في نظر العقل، لا غريباً فقط»[1].

لكن قد يظن بعض الناس أن القرآن قد احتوى على بعض ما يخالف العقل، وأن ذلك هو المتشابه، وتلك الآيات هي المتشابهات.

العقــل والمتشابــه

وصف الله تعالى كتابه الكريم بأن منه محكماً ومتشابهاً، والقسم المتشابه فيه لا سبيل إلى علمه، أو يمكن ذلك فقط لنخبة خاصة من أهل العلم. فما هو المتشابه، وما علاقته بالعقل الإنساني؟

إن الجواب عن هذا السؤال يقتضي التعرض لأهم آية قرآنية في الموضوع: قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۞ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 7 ـ 9].

وقد انقسم جمهور العلماء والمفسرين في الآية على مذهبين، بعد اتفاقهم على أن المحكم هو الذي اتضحت دلالته واستقرت، ولم يكن فيه إشكال:

المذهب الأول: المتشابه هو الذي خفيت دلالته:

أي أن المراد منه غير واضح بأول النظر، بل يحتاج لكشفه إلى مجهود وفكر وبحث، وهو متفاوت بقدر غموض المتشابه وإشكاله. ولذلك يوجد دائماً في الناس من يعرف المقصود بالآيات المتشابهة، وهم الذين وصفتهم الآية بالرسوخ في العلم. قال ابن قتيبة: «لسنا ممن يزعم أن المتشابه في القرآن لا

(1) رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، مرجع سابق، 1/ 220، البقرة 23-24. وانظر أيضا: 8/ 366 فما بعدها، الأعراف.

يعلمه الراسخون في العلم، وهذا غلط من متأوِّليه على اللغة والمعنى. ولم ينزل الله شيئا من القرآن إلا لينفع به عباده، ويدل به على معنى أراده... وهل يجوز لأحد أن يقول: إن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف المتشابه؟ وإذا جاز أن يعرفه مع قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته... (و) لم نر المفسرين توقفوا عن شيء من القرآن فقالوا: هذا متشابه لا يعلمه إلا الله، بل أمَّروه كله على التفسير، حتى فسروا الحروف المقطعة في أوائل السور»[1]. ولذلك يقف هؤلاء عند كلمة: والراسخون في العلم، من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: 7] ويكون ما بعده في معنى الحال، كأنه يقول: والراسخون في العلم قائلين آمنا به...[2]، وهذه قراءة ثابتة. وقد أثبت الله تعالى للراسخين في العلم فضيلة، ووصفهم بالرسوخ، فآذن بأن لهم مزية في فهم المتشابه[3].

المذهب الثاني: المتشابه ما لا سبيل إلى معرفته واستأثر الله بعلمه:

وذلك كأخبار الآخرة وأحوالها، ووقت قيام الساعة وعلاماتها الكبرى كياجوج وماجوج وخروج الدجال، والحروف المقطعة في أوائل السور... فهذه لا نعرفها ولا نستطيع معرفتها، بل يجب أن لا نطلب ذلك. ولذا ذم القرآن طلب المتشابه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ﴾ [آل عمران: 7] ومدح الله تعالى الراسخين في العلم بالإيمان، ولو عرَفوا معنى المتشابه على التفصيل ما كان لمدحهم بالإيمان مزية، لأن كل من عرف شيئاً على وجه التفصيل آمن به ولا بد[4]. وقد يوصف بالرسوخ من يفرق بين ما يستقيم تأويله، وما لا مطمع في تأويله[5]. وهؤلاء يقفون في القراءة على قوله تعالى:

---

(1) ابن قتيبة. **تأويل مشكل القرآن**، ص 72-73، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1964؛ وانظر: ابن تيمية. **الفتاوى**، 13 / 275، 285.

(2) المرجع السابق، ص 73؛ البغوي. **معالم التنزيل**، مرجع سابق، 3/ 10.

(3) ابن عاشور. **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، 3/ 164-165.

(4) راجع: البغوي. **معالم التنزيل**، مرجع سابق، 3/ 8؛ الرازي. **مفاتيح الغيب**، مرجع سابق، 7/ 191-192؛ ابن عطية. **المحرر الوجيز**، مرجع سابق، 3/ 17؛ **جامع البيان**، مرجع سابق، 3/ 107. كلها عند تفسير الآية.

(5) ابن عاشور. **التحرير والتنوير**، 3/ 165؛ وانظر: البغوي. **معالم التنزيل**، 3/ 11.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وما بعده جملة استئنافية ابتدائية، أي قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[1].

ما هي الحكمة في إنزال المتشابه؟

والجواب عن هذا يختلف باختلاف المذهبين. فعلى الأول ـ أي المتشابه هو الخفي الدلالة ـ تكون الغاية هي إظهار فضيلة العالِم بالنظر والبحث، «ولو كان كل فن من العلوم شيئاً واحداً، لم يكن عالم ولا متعلم، ولا خفي ولا جلي»[2]. قال الرازي ـ ضمن فوائد المتشابه: «الوجه الثالث أن القرآن إذا كان مشتملاً على المحكم والمتشابه افتقر الناظر فيه إلى الاستعانة بدليل العقل، وحينئذ يتخلص عن ظلمة التقليد ويصل إلى ضياء الاستدلال والبينة. أما لو كان كله محكماً لم يفتقر إلى التمسك بالدلائل العقلية، فحينئذ كان يبقى في الجهل والتقليد»[3] أما على الرأي الثاني فتكون الحكمة من ذكر المتشابه في القرآن هو اختبار العباد ليظهر هل يؤمنون به ويسلمونه، أم يزيغون عنه. ولذلك عرّف بعضهم المتشابه بأنه: ما أُمرتَ أن تؤمن به وتَكِل علمه إلى عالمه[4]. وقال الزركشي: من الحِكم «إنزاله ابتلاء وامتحاناً بالوقف فيه والتعبد بالاشتغال من جهة التلاوة وقضاء فرضها، وإن لم يقفوا على ما فيها من المراد الذي يجب العمل به... ويجوز أن يمتحنهم بالإيمان بها...»[5] وزاد الشيخ عبده هذا المعنى إيضاحاً بقوله: «إن الله أنزل المتشابه ليمتحن قلوبنا في التصديق به، فإنه لو كان كل ما ورد في الكتاب معقولاً واضحاً لا شبهة فيه عند أحد من الأذكياء ولا من البلداء، لما كان في الإيمان شيء من معنى الخضوع لأمر الله تعالى والتسليم لرسله»[6].

---

(1) البغوي. **معالم التنزيل**، مرجع سابق، 3/ 10؛ أبو السعود. **إرشاد العقل السليم**، مرجع سابق، 1/ 218.

(2) ابن قتيبة. **تأويل مشكل القرآن**، مرجع سابق، ص 62؛ وانظر أيضا: رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، مرجع سابق، 3/ 170-171.

(3) الرازي. **مفاتيح الغيب**، مرجع سابق، 7/ 186. آل عمران 7.

(4) **البرهان في علوم القرآن**، مرجع سابق، 2/ 81.

(5) المرجع السابق، 2/ 81.

(6) رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، مرجع سابق، 3/ 170.

لايحتاج في التكليف إلى المتشابه

على أن المتفق عليه بين العلماء أن التكليف لا يتوقف على معرفة المتشابه وإدراكه. ولذلك فالتعبير بـ«أم الكتاب» عن الآيات المحكمات الواضحات، و«أم الشيء» معظمه... هذا التعبير إشارة إلى أن القرآن الكريم قد أوضح وفصَّل ما يحتاج إليه الإنسان في دنياه وآخرته، مما تقوم به الحجة. وغير ذلك قد يكون بعضه متشابها لأنه لا دور كبير له في مهمة الاستخلاف.

وقد ضرب الإمام الطبري لهذا المعنى مثلاً، وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [آل عمران: 158] وأخبر النبي عليه السلام أن تلك الآية طلوع الشمس من مغربها... قال الطبري: «الذي كانت بالعباد إليه الحاجة من علم ذلك هو: العلم منهم بوقت نفع التوبة بصفته، بغير تحديده بعد بالسنين والشهور والأيام. فقد بيّن الله ذلك لهم بدلالة الكتاب وأوضحه لهم على لسان رسوله ﷺ مفسَّرا. والذي لا حاجة لهم إلى علمه منه هو: العلم بمقدار المدة التي بين وقت نزول هذه الآية ووقت حدوث تلك الآية[1]، فإن ذلك مما لا حاجة بهم إلى علمه في دين ولا دنيا، وذلك هو العلم الذي استأثر الله جل ثناؤه به دون خلقه فحجبه عنهم، وذلك وما أشبهه هو الذي طلبت اليهود معرفته في مدة محمد ﷺ وأمته من قِبل قوله: الم، والمص، والر....»[2].

المتشابه ابتلاء للعقل

وهذا المعنى ينكشف ببحث العلاقة بين المتشابه والعقل، وهذه المسألة بالذات ـ وموضوع المتشابه بصفة عامة ـ من أعقد قضايا أصول الدين وأغمضها. ولكن لابأس أن أقول فيها رأياً:

---

(1) المقصود بالآية الأولى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَتِ رَبِّكَ ...﴾. والآية الثانية هي طلوع الشمس من المغرب لا المشرق. ومعنى كلام الطبري أن الذي يحتاج الناس إليه هو معرفة متى تنفع التوبة، فقيل لهم قبل طلوع الشمس من جهة الغرب. بينما هم لايحتاجون إلى معرفة متى سيحدث هذا الطلوع وفي أي سنة.

(2) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **جامع البيان**، 3/ 108. آل عمران 7.

المتشابه قسمان:

1 ـ ما خالف ظاهر العقل، وذلك مثل الآيات التي يفيد ظاهرها التجسيم: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: 47]، ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: 27] وكقوله تعالى في عبده عيسى بن مريم: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [النساء: 171][1]. قال الرازي ـ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: 269] ـ: «هذا ثناء من الله تعالى على الذين قالوا آمنا به... فيعلمون الذي يطابق ظاهرُه دلائلَ العقول فيكون محكماً. وأما الذي يخالف ظاهرُه دلائل العقول فيكون متشابهاً. ثم يعلمون أن الكل كلام من لا يجوز في كلامه التناقض والباطل، فيعلمون أن ذلك المتشابه لا بد وأن يكون له معنى صحيح عند الله تعالى»[2]. ثم اختلف العلماء في معنى الرسوخ في العلم في هذه الحالة، هل هو بتمييز المتشابه عن المحكم، ثم تفويض العلم بالأول إلى الله سبحانه، أم هو بتفسير المتشابه ومعرفته؟[3] والمتشابه هنا لا يخالف صريح العقل، بمعنى المناقضة التامة، فهذا لا يوجد في القرآن ولا في السنة الثابتة، فمهما قلبتَ النظر فيهما لن تجد فيهما «المستحيل عقلاً»، إنما تجد نصوصاً قد تختلف مع ظواهر بعض العقول، أو ـ على الأصح ـ مع بعض عادات العقل في التفكير والتفهم.

2 ـ ما عجز العقل عن معرفته، واستأثر الله تعالى بعلمه من دون خلقه. ولذلك ذكر الرازي من الأقوال في تفسير المتشابه: «القول الرابع: إن كل ما أمكن تحصيل العلم به سواء كان ذلك بدليل جلي، أو بدليل خفي، فذاك هو المحكم. وكل ما لا سبيل إلى معرفته فذاك هو المتشابه»[4]. وهذا يتنوع إلى قسمين بحسب متعلق هذه المعرفة:

أ ـ حقيقة المتشابه: فهنا يجهل العقل الحقيقة مطلقاً، لكنه مع ذلك له حالتان:

---

(1) انظر: ابن عطية. **المحرر الوجيز**، 3/ 15. أبو السعود. **إرشاد العقل السليم**، 1/ 218.

(2) الرازي. **مفاتيح الغيب**، مرجع سابق، 7/ 194. آل عمران.

(3) رضا، محمد رشيد. **المنار**، 3/ 168.

(4) الرازي. **مفاتيح الغيب**، مرجع سابق، 7/ 185.

أ ـ 1 ـ إما أن يكون له شعور بالمتشابه على الجملة، بحيث يفهمه فهماً ما، ولو بمجرد معرفة الأسماء. وهذا كأحوال الآخرة وصفاتها وما سيجري فيها، وكالقدر وسره، وأكثر الغيبيات.

قال الشيخ محمد عبده: إن هذا النوع من المتشابه «في القرآن ضروري لأن من أركان الدين ومقاصد الوحي الإخبار بأحوال الآخرة، فيجب الإيمان بما جاء به الرسول من ذلك على أنه من الغيب، كما نؤمن بالملائكة والجن، ونقول إنه لا يعلم تأويل ذلك، أي حقيقة ما تؤول إليه هذه الألفاظ إلا الله. والراسخون في العلم وغيرهم في هذا سواء، وإنما يعرف الراسخون ما يقع تحت حكم الحس والعقل فيقفون عند حدهم، ولا يتطاولون إلى معرفة حقيقة ما يخبر به الرسل عن عالم الغيب، لأنهم يعلمون أنه لا مجال لحسهم ولا لعقلهم فيه، وإنما سبيله التسليم، فيقولون آمنا به كل من عند ربنا... ومن المحال أن يخلو الكتاب من هذا النوع فيكون كله محكماً بالمعنى الذي يقابل المتشابه... فتبين مما قررناه أنه لا يقال على هذا: لماذا كان القرآن منه محكم ومنه متشابه، لأن المتشابه بهذا المعنى من مقاصد الدين، فلا يلتمس له سبب لأنه جاء على أصله»[1] وبعض العلماء لم يعُدَّ هذا القسم من المتشابه، قال ابن عاشور: «ليس من المتشابه ما صرح فيه بأنا لا نصل إلى علمه كقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85]»[2].

أ ـ 2 ـ الحالة الثانية للمتشابه، وهي حين لا يكون له معنى، لا في العقل ولا في اللغة. وهذا بالنسبة إلينا، وفي أول النظر، ولها عند الله تعالى معانٍ صحيحة. ثم من العلماء من يقول هذا المتشابه نؤمن به ولا نفسره ولا نعرف معناه أو نتطلبه، ومنهم من يقول بل يجوز أن نبحث عن معناه ونجتهد في تحصيله، ويمكن أن يصيب رأينا في ذلك. ويكاد لا يوجد في القرآن من هذا الضرب سوى فواتح السور.

---

(1) رضا، محمد رشيد. **المنار**، 3/ 167-168.

(2) ابن عاشور. **التحرير والتنوير**، 3/ 160. وقارن بـ: ابن عطية. **المحرر الوجيز**، مرجع سابق، 3/ 20-21.

ب ـ زمان المتشابه: كقيام الساعة مثلاً، وأشراطها الكبرى، فهذا مفهوم واضح، لكن عرض له التشابه في وقت تحققه متى يكون. فهذا رأي من نظر إلى زمان المتشابه. أما من نظر إلى أن القيامة مثلاً أمر معروف في نفسه بوصف القرآن إياه، وإنما نجهل متى يكون، فلم يَعُد هذا من المتشابه[1]. ولهذا ميزت بين النص إذا عارض ظاهر العقل، وبينه إذا تجاوز العقل. ففي الحالة الأولى يصطدم العقل بما يخالف طريقته المعتادة في العمل، وفي الثانية لا يجد مخالفة ما، ولكنه لا يفهم كل شيء ولا يدرك الموضوع بأطرافه جميعاً.

خاتمـــة

إن وجود المتشابه في نصوص الوحي درس موجَّه إلى العقل الإنساني، لكي يعمل ويبحث حيث يجوز له ذلك، ويعرف حدوده ومجاله فيما وراء ذلك. فهذا توجيه للعقل وتأديب له. ولا يصح أن نعتبر المتشابه نقيضاً للعقل القطعي. وإن كانت القاعدة هي إبعاد المتشابه ـ وأمور الغيب عامة ـ عن جدل العقل والفكر.

الجدل بين أفلاطون والإمام مالك

رغم أن أفلاطون ليس هو من دشن الطريقة الجدلية في الفلسفة، والمعروفة بالديالكتيك... إلا أنه أكبر فيلسوف جدلي، ولهذا اختار ـ لعرض فلسفته ـ طريقة الحوار، حيث الكتاب كله عبارة عن كلام وأخذ وردّ بين مجموعة من الفلاسفة ـ أو المهتمين ـ الإغريق... أي عبارة عن جدل. وعادة ما يمثل أفلاطون في هذه المحاورات أستاذُه سقراط، فهو الشخصية المركزية في الحوار.

ويعجب القارئ فعلاً من جدل أفلاطون ومن قدرته الهائلة على المناقشة، فهو لذلك مُمتِع بعكس تلميذه أرسطو.. ذو الأسلوب الجاف.

وعادة ما يقدم أفلاطون الإشكال في بداية الحوار، ويعرض للحلول

---

(1) كابن عاشور في: **التحرير والتنوير**، 3/ 160. وانظر: ابن عطية. **المحرر الوجيز**، 3/ 17. من المفيد للقارئ أن يرجع في موضوع المتشابه إلى: رأي ابن عطية في **المحرر الوجيز**، 3/ 20 إلى 23، ورأي ابن تيمية في **الفتاوى**، 13 /270 فما بعدها.

المتوفرة على لسان بعض الحاضرين... ثم يتدخل سقراط فيبدأ بمساءلة صاحب الرأي، ويكشف له شيئاً فشيئاً عن أخطائه وتناقضاته.. فإذا تمَّ ذلك وأذعن المخالف، بسط سقراط «الصواب» واحتج له بمنطق ظاهري قوي[1].

لكن محاورات أفلاطون تكشف ـ ربما من حيث لم يقصد صاحبها ـ عن ضعف العقل الإنساني وتردده، لأنها وإن كانت تنتهي ـ في الأكثر ـ بترجيح رأي ما إلا أن القارئ لا يطمئن إلى هذا الترجيح بشكل تام، فقد علَّمه هذا الجدل أنه يمكن لرجل أقوى من سقراط أن ينقض هذا الرأي الأخير الذي قرره ودافع عنه، فيثبت رأياً آخر. بل إن أفلاطون نفسه ترك بعض حواراته معلقة دون حل، ولم ينته فيها إلى نتيجة. ولذلك تعجبني قراءة الحوارات الأفلاطونية، حيث أتفرج من خلالها على تناطح العقل مع نفسه[2].

إذن يمكن لرجل أجدل من سقراط أن يقنعنا بموقف آخر، ثم يأتي رجل ثانٍ فيثبت لنا أمراً آخر، ثم ثالث... وهكذا دواليك. وهذا ما فهمه الإمام مالك وعبَّر عنه بعبارة جميلة وبليغة. فقد قال له رجل ـ على مذهب المرجئة ـ: يا أبا عبد الله اسمع مني شيئا أُعلمْك به وأحاجُّك، وأخبرك برأيي، فإني ما أريد إلا الحق، فإن كان صواباً فاعترف به، وإلا بيِّن لي رأيك. فقال له الإمام مالك: فإن غلبتني؟ فقال الرجل: اتبعني. قال مالك: فإن غلبتك؟ قال: أتبعك. ثم قال مالك: فإن جاء رجل فكلمناه فغلبنا؟ قال: نتبعه. وهنا قال مالك: أكلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل على محمد لجدله. وقال أيضاً: أرأيت إن جاء من هو أجدل منه، أيدع دينه كل يوم لدين جديد؟[3].

إن العقل البشري يقف ـ في قضايا لا تحصى كثرة ـ موقف الحائر أو

---

(1) لكن يبدو سقراط ـ أحياناً ـ بتلاعبه بالكلمات والألفاظ، وباحتمالاته وردوده... أكثر سفسطة من مخالفيه. ومن أمثلة هذا محاورة Protagoras.

(2) من الحوارات المعلَّقة: تيتوس، وإيون، وبروتاغوراس(Théétète, Ion, Protagoras) أما محاورة بارمينذس .(Parménide) فنموذج للقدرة على إثبات الشيء ونقيضه، بالقوة نفسها والكفاءة العقلية ذاتها.

(3) توجد القصة نفسها-مع اختلاف يسير في الرواية- في عدد من المصادر منها: الأصفهاني. **حلية الأولياء**، 6/ 354، خبر رقم 8900؛ اليحصبي. القاضي عياض. **ترتيب المدارك**، 2/ 38-39.

المتردد، فلا يكون قادراً لوحده على معرفة الحق فيها. وهنا لا يسعفه منطقه ولا جدله، لأن دائرة الممكنات والاحتمالات ـ في مثل هذه القضايا ـ واسعة جداً. وإنما يتبع الناس رأياً معيناً فيها، لا للقطع بصوابه، بل لأن مستوى الجدل وقدرته لا يسمحان بقول آخر؛ فإن جاء رأي آخر واحتمى بجدل أقوى وسفسطة أظهر... تُرك القول الأول... وهكذا. وسبب هذا الوضع أن عالم الإنسان ليس هو عالم الرياضيات، وليس لأسئلة مثل: ما هي صفات الخالق، وماذا بعد الموت، وما الفضيلة، وماهي غاية الوجود... أجوبة حسابية أو هندسية. لهذا حين يقصي الإنسان الوحي من حياته ومصادر معرفته... لا يتوفر له جواب واضح لكل إشكال، فيضطر إلى استعمال الفكر والتأمل والقياس... أي تتحول القضايا الوجودية الكبرى للإنسان إلى مسرح للجدل، وإلى مباراة بين المتجادلين، لعل بعضهم أجدل من بعض... لكنهم جميعاً أهل جدل.

قاعدة في الشبه بين عالمي الغيب والشهادة

رغم أن الغيب يقابل المحسوس، إلا أنه باستطاعتنا تكوين صورة عنه والإحساس ببعضه على نحو ما، كما في تصورنا للجنة ونعيمها، وللنار وعذابها... ولو كان هذا متعذراً كل التعذر ما أفاض القرآن في وصف بعض المغيبات بمصطلحاتنا وألفاظنا التي نعقلها. والحكمة في ذلك تقريب عالم الغيب إلى ذهن المخاطَب وشعوره، حتى يكون له ضرب من الإدراك المجمل والعام لهذا العالم.

ويحكي الله تعالى عن أهل الجنة قائلا: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقَاً قَالُواْ هَذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهَاً﴾ [البقرة: 24]. فالتشابه قائم، لكنه لفظي في الأكثر. ولذلك قال أبو طاهر القزويني ـ بعد كلام في قصور العقل عن فهم الغيب ـ: «ومن هذا القبيل قراءة أهل العرصات الكتب المكتوبة بخط الملائكة الكرام، ولا شك أنها بخلاف كتابة أهل الدنيا... ومن ذلك أيضاً ما يخلق الله تعالى من إدراك لذات كثيرة من نعيم الجنة: مطعومها ومشروبها ومشمومها وملبوسها ومنكوحها، عن حالة لا توجد في الدنيا، كما وردت به

الأخبار الصحيحة في ثواب الأعمال. وتلك الإدراكات بذاتها لا تضاهي شيئاً من الإدراكات التي تُدرك بها اللذات الدنيوية، فإنها وإن كانت تشاكلها في الجنسية والتسمية، فإن لها اختصاصات عجيبة تكلّ العقول عن دركها. وقول ابن عباس ـ ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا إلا بأسمائه ـ أصل كبير في هذا الباب[1]. فلعدم تلك الإدراكات في الدنيا لا نجد في أنفسنا لذة النظر إلى وجه الله الكريم، ولا غير ذلك من اللذات الموعودة في الجنة، كما لا يجد الصبي في صباه لذة الجاه لأنه لم يخلق له إدراك ذلك. والدليل على هذه الجملة قوله ﷺ عن رب العزة جل وعلا: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بله ما اطلعتم عليه، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17]. وهذه خطة ضلت فيها الفلاسفة فأنكروا أمور الآخرة. وإذ قد صح لك أن العقل لا يطلع على كنه حقائق الأشياء الغيبية، ولا يبلغ منتهى أسرارها، علمت أن غايته أن يقيس ما لم يره على ما يراه بأدنى شبه يكون بينهما»[2] فهذا التشبيه ـ أو القياس ـ رخصة وضرورة، لأنه لا بد للإنسان أن يفهم الغيب فهما مجملاً ـ حيث يتعذر الفهم التفصيلي والحقيقي ـ، لكن الضرورة تقدر بقدرها، ولذلك كان هذا التشابه ـ في بعض أمور عالمي الغيب والشهادة ـ اسمياً أو لفظياً أكثر منه في المعنى. ولذلك نحن نفهم بعض صفات الله تعالى وأنه مثلاً عليم قدير جواد رحيم... بالقياس الى صفات العلم والقدرة والجود والرحمة... في البشر، مع الفرق العظيم ـ والذي لانهاية له ـ بين صفات الخالق وصفات المخلوق. فالأصل ـ إذن ـ ألا يُتوسع في تشبيه الغيب بالدنيا، كما قال رشيد رضا ـ في الآيات التي فيها ذكر القلم واللوح المحفوظ...ـ: «مذهب السلف أن نؤمن بالقلم الإلهي واللوح المحفوظ، وما كتب بالقلم في اللوح من مقادير الخلق وإحصائه جميع ما كان ويكون في هذا العالم، من بدء تكوينه إلى يوم القيامة، من غير أن نحكم آراءنا وأقيستنا في صفة شيء من

(1) انظر تفصيل هذه الفكرة في مبحث (اللغة والوجود) الآتي.

(2) نقله الشعراني في: **اليواقيت والجواهر**، 2/ 166. والحديث المذكور رواه الشيخان.

ذلك، ولا نقبل قول أحد ـ غير المعصوم ـ فيما يزعمه من وصف اللوح أو القلم أو تلك الكتابة. ومن الجهل الفاضح أن نشبه ذلك بما نعهده من كتابتنا، ونحن نرى البشر قد اخترعوا لتدوين الكلام طرقاً يتلقاها بعضهم عن بعض على مسافة ألوف من الأميال والفراسخ في البر والبحر، بواسطة الكهرباء التي تُسخَّر لذلك، بأسلاك وبغير أسلاك. . . . والذين يؤولون ما ورد في اللوح والقلم والعرش ليسوا أبعد عن مذهب السلف ممن يشبهون هذه العوالم الغيبية بما يعهدون من صنع البشر في هذا العالم المتغير، وهم يرون أن هذه المصنوعات تتغير وتترقى كلما ترقى الناس في الصناعات، حتى إن الشيخ الشعراني صوّر الميزان الإلهي الذي يزن به تعالى أعمال العباد المعنوية كلها في وقت واحد قصير ـ وهو أسرع الحاسبين ـ بصورة أحقر الموازين البشرية التي اخترعوها في طور البداوة والجهل بفنون الصناعة، ونحن نرى البشرقد اخترعوا في هذا العصر أنواعاً من الموازين الدقيقة للأثقال المادية وللأمور المعنوية كالرطوبة والحرارة والبرودة والسرعة. . .»[1].

(1) **تفسير المنار**، مرجع سابق، 7/ 471، سورة الأنعام.